حوادث الغضب بالمغرب الأوسط وأثرها على المجتمع الريفي (القرنين 8- 9هـ/ 14- 15م)
قراءة في نوازل المازوني

حياة بوصلاح
جامعة عبد الحميد مهري – قسنطينة 2
samiasalah898@gmail.com

تاريخ الإرسال:31/ 10/ 2019؛ تاريخ القبول: 03/ 08/ 2020

Incidents of infringement in the Central Maghreb and their effect on the rural society centuries (8-9h/ 14-15 A D)
A reading in the nawazel Almazouni

Abstract:

The central Maghreb has seen several problems, were a result of the conditions prevailing at the time, and perhaps the most dangerous of the irregularity and infringement, which is widely spread in the rural society. Almazouni in his book explained to us the manifestations and aspects of irregularity practiced by Arab tribes on the rural population and the countryside. These actions have damaged the first degree peasants, the usurpers have worked to take everything in the hands from the land and animals, because the weakness of the influence of the ruling authority in these areas.

Keywords: nawazel almazouni; infringement; farmer; Central Maghreb; ruling authority

الملخص:

شهد المغرب الأوسط عدة مشاكل كانت نتيجة للأوضاع السائدة آنذاك، ولعل أخطرها أعمال الغضب والتعدي التي انتشرت

بشكل واسع في المجتمع الريفي في تلك الآونة. والمازوني في كتابه وضح لنا مظاهر وأوجه الغصب الممارس من طرف القبائل العربية على سكان الريف والبوادي. لقد أضرت هذه الأعمال بدرجة أولى بالفلاحين لأن الغاصبين عملوا على أخذ كل ما بأيديهم من أراضي وحيوانات، لضعف نفوذ السلطة الحاكمة في هذه المناطق.

الكلمات المفتاحية: نوازل المازوني؛ الغصب؛ الفلاح؛ المغرب الأوسط؛ السلطة الحاكمة.

مقدمة:

عرف المغرب الأوسط عدة توترات وصراعات نتيجة انقسامه بين الدويلات المغربية الثلاث (الحفصية، الزيانية، المرينية)، فكانت نتيجتها أن كثرت المظالم وانتهكت الأعراض والأموال وأزهقت الأنفس، وهذا ما أوضحته تآليف ذلك العصر على اختلافها وتنوعها: كتب الحوليات، كتب الفقه والفتاوي، كتب الرحلة...ولما كانت كتب الفتاوي تتسم بالواقعية والجدية في محتواها، لما تحمله في طياتها من قضايا ومسائل تسمح باستقراء الواقع المعاش للمجتمع، فإننا لا نجد أفضل من المازوني(أنظر التعليق رقم 1) ليصور لنا هذا الواقع باعتباره شاهدا من شهود العيان في ذلك العصر، فنوازله ثرية بمادة خبرية تكشف لنا عن المشاكل والمعيقات التي كان يتخبط فيها المجتمع والظروف التي عاش فيها بالأخص في المدن الكبرى وأحوازها كتلمسان، والجزائر، وبجاية(المازوني: ورقة 1 ظ). لقد وصفت نوازل المازوني حالة المغرب الأوسط في أكثر من نازلة بفساد الزمان وعدم جريان الأحكام الشرعية

به، وهذا راجع لأسباب عدة، تأتي في مقدمتها قلة مبالاة الحكام بشؤون الرعية، وكثرة الغصوبات والاعتداءات(أنظر التعليق رقم2) الممارسة من طرف القبائل العربية بالأخص كقبيلتي بني عامر وسويد(أنظر التعليق رقم 3) ضد القبائل الضعيفة، وبذلك فإن الغصب شكل أمرا في غاية الخطورة، فهو يحرم الناس من استغلال أملاكهم(المازوني: ورقة 63ظ، 248و) ويحول دون حصول النفع والفائدة خاصة ما تعلق بالأرض والحيوان، ومن هذا المنطلق فإننا سنركز على الجانب الفلاحي الذي تتجلى فيه صور ومظاهر الغصب بصورة أكثر وضوحا وتمكن من استقراء الواقع الاقتصادي لسكان المغرب الأوسط.

أولا: الصراع القبلي والتفوق العربي الهلالي.

ساهمت الاضطرابات السياسية التي شهدها المغرب الأوسط بقسط كبير في تغيير التركيبة الاجتماعية للمجتمع آنذاك، فقد كان يقطن به قبائل متعددة متناحرة فيما بينها، قسم منها محلي متأصل بجذوره عبر العصور متمثل في القبائل البربرية(أنظر الملحق رقم 4)، والآخر دخيل وافد استقر بالمنطقة عبر مراحل مختلفة من الزمن كالقبائل العربية التي جاءت مع الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري/ السادس ميلادي، ثم تلتها فيما بعد القبائل الأعرابية من بني هلال وبني سليم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي(أنظر التعليق رقم5) بالإضافة إلى أخلاط أخرى أعجمية(أنظر التعليق رقم 6)، فكان التفوق فيها للعنصر العربي الذي يرجع حسب رأينا إلى عاملين.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 98 - 122

العامل الأول يعود إلى نمط السلوك البشري في علاقته بالمجال الجغرافي، الذي تميز بكثرة الصراعات فيما بين القبائل المتجاورة، حول المضارب والمواطن التي تتميز بخصوبة تربتها وملائمتها للإنتاج الفلاحي(ابن خلدون، 2000: 7/ 71)، فالقبائل الأعرابية وفي إطار سياستها التوسعية، عملت على مد مجالاتها على حساب القبائل الضعيفة، ولا تعوزنا القرائن الدالة على ذلك فقبيلة بنو مزني من عرب الأثبج على سبيل المثال استقروا في أول الأمر بقرى الزاب وجاوروا قبائل زناتة، ثم توسعوا شمالا فأضافوا لها بلاد الحضنة (قرى مقرة ونقاوس والمسيلة)، وبلاد التل من أرض سدويكش(أنظر التعليق رقم 7) ومجالات عياض، وشرقا إلى جبال الأوراس، وجنوبا قرى ريغة ووارکلة(ابن خلدون، 2000: 6/ 585-588)، والأمر ذاته حدث مع قبائل الواقعة في الجزء الغربي من المغرب الأوسط، إذ سيطرت زغبة وبنو عامر على مجالات الشلف ومازونة وأحواز تلمسان وغيرها، يقول المازوني بهذا الصدد في مسألة طرحها على شيخه محمد بن مرزوق:﴿ ...أردت سيدي الجواب عنها، وذلك أن قريتنا كما تعلم أهلها مملوكون أو شبه مملوكين لأمراء العرب...﴾(المازوني: ورقة 198ظ)، وهذا دليل واضح على اكتساح القبائل الأعرابية للمغرب الأوسط.

أما العامل الثاني الذي ساهم في تفوق العنصر العربي هو الامتيازات، فسلاطين الدولة الزيانية منذ وصولهم إلى حكم المغرب الأوسط عملوا على إقرار مبدأ الامتيازات الذي أصبح بمثابة تشريع سار

على نهجه كل سلاطين بنو زيان مقابل الحصول على الدعم العسكري(أنظر تعليق رقم8)، والأمثلة التاريخية الدالة على ذلك كثيرة، فقبائل بني عامر وزغبة وحميان والمعقل أقطعها السلطان يغمراسن بن زيان(633-681هـ/ 1235- 1282م) أراضي الإقطاع التي كانت بيد الجماعات العسكرية في عهد الموحدين(عبد العزيز فيلالي، 2002: ص 173/ أحمد عزاوي، 2007: ص 43)، بينما كان للعطاف والديالم من ولد الحرث بن مالك إتاوات بلد سيرات والبطحاء وهوارة(ابن خلدون، 2000: 6/ 64، 68).

ويشير ابن خلدون إلى ما آلت إليه الدولة الزيانية في عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني(760- 791هـ/ 1358-1389) بقوله:﴿ وتملكت زغبة سائر البلاد بالإقطاع كرها أو طوعا حتى طردوا زناتة إلى سيف البحر﴾(ابن خلدون، 2000: 6/ 64)، واستلف بني عامر بالعطايا العقارية والكساء(عبد العزيز فيلالي، 2002: 1/ 212)، وقلد وزارته لعبد الله بن مسلم والي درعة من عرب المعقل، فعمل على نقل قبائل ذوي منصور من العمارنة والمنبات إلى ضواحي تلمسان وأقطعهم الأراضي(مصطفى أبو الضيف أحمد عمر، 1982: ص 153، 154)

ونفس النهج سار عليه أمراء الدولة الحفصية في الجزء الشرقي من المغرب الأوسط الذين سعوا إلى اصطناع قبائل رياح(أنظر تعليق

رقم 9) واستمالتهم فأقطعوا لهم بلاد الزاب والأوراس وبسيط الحضنة (نقاوس، مقرة، المسيلة) (ابن خلدون، 2000: 6/ 43، 47)، كما انتشرت قبائل وأحياء عربية أخرى من قسنطينة إلى بلاد الزاب وما جاورها من التخوم الصحراوية كقبائل الأثبج وغيرها(ابن الحاج النميري، 1990: ص384- 477).

وبهذا تكون القبائل العربية صنعت لنفسها مكانة سياسية وعسكرية، إذ كادت أن تكون سيدة البلاد في بعض الأحيان، فتصرفوا في البلاد تصرف الحكام بالإقطاع وتعيين الأئمة والقضاة(المازوني: ورقة 63ظ، 64و، 75و، 258و)، وغيرها.

ثانيا: أساليب الغصب في المغرب الأوسط

حصرت نوازل المازوني عمليات الغصب في القبائل الأعرابية، فعادة ما جاءت نوازله مستهلة بعبارة:﴿ إن بلادنا هاته كثيرة الباطل والغصوبات ﴾، أو قوله:﴿ وذلك أن قريتنا كما علمتم هي للعرب...﴾ (المازوني: ورقة 156و، 194ظ)، في حين جاء ذكر لأسماء القبائل الأعرابية الغاصبة في قضية قتال بني عامر وسويد التي وردت في النازلة طرحها الفقيه أبو العباس أحمد المريض(أنظر التعليق رقم 10) سنة 796هـ/ 1393-1394م استفتى فيها شيخه ابن عرفة(أنظر التعليق رقم 11) (المازوني: ورقة 56ظ، 57و)، وزاد عنه الونشريسي في المسألة ذاتها عرب الديالم وسعيد ورياح(أبو العباس أحمد الونشريسي، 1981:

2/ 436). إن هاته القبائل كلها فروع من بني مالك بن زغبة استقروا ضمن حدود الدولة الزيانية.

ثم إن أساليب الغصب اختلفت حسب طبيعة القائم بعملية الغصب في حد ذاته، وحسب ما جاء في نوازل المازوني فإنه يوجد أسلوبان لعمليات الغصب:

1- أسلوب القهر والغلبة:

يعتمد هذا الأسلوب على مدى قدرة أصحاب الجاه والسلطان من أعيان القبائل العربية على بسط نفوذهم على ما جاورهم من الأرياف، بالأخص القبائل القاطنة في السهول لسهولة الوصول إلى مضاربها(ابن خلدون، 2005: ص 120)، ففرضت عليها مظالم مغرمية إضافية لحسابها الخاص وعملت على أخذ كل ما بأيدي الرعية من أملاك عقارية (المازوني: ورقة 156ظ، 213ظ، 221(و،ظ)، 222و، 225ظ، 226(و،ظ)، 227ظ)، من ذلك سيطرت أعراب بني عامر شرفاء مليانة على سهل سيرات ففرضوا المغارم على البرابر القاطنين بتلك الجهات والأراضي المجاورة له(الحسن الوزان، 1983: 1/ 29، 132، 2/ 103، 140/ مارمول كاربخال، 1984: 1/ 326)، والأمر ذاته حدث ببجاية حيث ذكرت النوازل أن سكانها كانوا مثقلين بالغرامات كوظائف الجنات ووجيبة الحرث وغيرها من المظالم، وسخروا الفلاحين للعمل بأرضهم بدون مقابل(المازوني: ورقة 151و، 228و).

والجدير بالذكر أن رابطة الدم لم يعد لها أهمية بالغة، جاء في نازلة وردت على الفقيه الحفيد محمد العقباني(أنظر التعليق رقم 12) جاء فيها:﴿ عن بني عم جبابرة لهم أوطان ورعية تعدى بعضهم على بني عمه في أوطانهم ورعيتهم، وأخذ من رعيتهم على وجه العداء أشياء كثيرة...﴾(المازوني: ورقة 201و)، حيث لم تمنع هذه الصلة من قيام نزاعات فيما بين العشائر.

2- أسلوب الإغارة:

قام الغاصبون من الأعراب بشن غارات مفاجئة(أنظر التعليق رقم 13) على أهالي المغرب الأوسط، فحملوا كل ما وجدوه من مال وزاد وحيوانات، وكان هذا الأسلوب مصدر عيش ودخل لهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون عن الأعراب:﴿ فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم...﴾(ابن خلدون، 2005: 120)، هذا ما تؤكده نازلة وردت على الفقيه أبو العباس أحمد المريض جاء فيها:﴿ جواب سيدنا أمتع الله بكم عن مسألة وهي جماعة في مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها وراجلها عشرة آلاف ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق... هذا دأب سلفهم وخلفهم...ثم هم مع ذلك لا تأمن الرفاق من جانبهم، نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن فيها...﴾(المازوني، ورقة56ظ)، وفي نفس السياق وردت مسألة أخرى على الفقيه أبي الفضل العقباني(أنظر التعليق رقم 14) جاء فيها:﴿ عن أهل قرية

جاءها الأعراب خيلا ورجالة بنجوعها ...ومقاتلة هؤلاء الأعراب يزيد راجلهم على ألفين رجلا وفارسهم عن خمسين فارسا...﴾(المازوني: ورقة 60(و،ظ))، ولم يكن ريف بجاية بمعزل عن هذه الأعمال فقد سئل عبد الرحمن الوغليسي(أنظر التعليق رقم 15):﴿ عن محاربين أتوا لأخذ أموال قوم وضرب رقابهم فشرعوا في ذلك وأخذوا بعض المال وجرحوا أناس من أهل الموضع...﴾(المازوني: ورقة 60ظ)، إن هذه الصفة كانت ملازمة لهم في بلاد المغرب الإسلامي ككل، فجاء في نوازل البرزلي سؤالا مفاده :﴿ ما تقول في شراء بهيمة من أعراب زماننا الذين لا يمنعون من إغارة ...﴾(البرزلي، 2002: 5/ 119)، ولم تخلوا كتب الرحلة والجغرافيا هي الأخرى من التنويه بأعمال هؤلاء الغاصبين، فصحراء أنكاد على سبيل المثال كانت تعد مأوى لعصابة لصوص من الأعراب(الحسن الوزان، 1983: 2/ 11).

ثالثا:أوجه الغضب بالمغرب الأوسط:

اختلفت أوجه الغضب بالمغرب الأوسط حسب حاجة الغاصب نفسه، ومنه فقد اتخذ هذا الأخير أشكالا مختلفة تراوحت بين استغلال الفلاح أو ممتلكاته.

1- غصب رقبة الشيء:

يقصد به أن يستولي الغاصب على الشيء المغصوب، فيمتلك بذلك العين وأحقية التصرف فيها بالبيع والشراء والهبة وغيرها من تصرف المالك في ملكه(المازوني: ورقة 228و).

2- غصب منافع الشيء:

المنفعة هي ملك أو إباحة منفعة الشيء فقط بإيجار أو عارية مثلا. ويقصد به هنا حرمان صاحب الشيء من استغلال ملكه والانتفاع به دون أن يتملك رقبته(المازوني: ورقة 228).

وقد تمخضت عن هذه الأوجه أشكالا مختلفة للغصب نذكر منها:

أ- غصب الأرض:

انتشرت عمليات غصب الأرض بكثرة بالمغرب الأوسط واختلفت أشكالها، كأن تغصب الأرض قبل خدمتها فيحرم الفلاح من حق استغلال أرضه، أو تغصب بعد الحرث مزروعة كانت أم مغروسة(المازوني: ورقة 221ظ، 222(و،ظ)، 225ظ، 226ظ)، فالمغتصبين انصب اهتمامهم على افتكاك أراضي الفلاحين خاصة الضعفاء منهم(المازوني: ورقة 159و، 226ظ، 241ظ).

ب- غصب الحيوان:

سجلت نوازل المازوني بشأن هذا النوع من الغصب عدة نوازل تصب معظمها في غصب أنواع محددة من الحيوان وهي الثور والبقر(المازوني: ورقة 245و)، باعتبارهما أداة من أدوات العمل الفلاحي التي كانت يحتاج إليها في حراثة الأرض وجني المحاصيل...بالإضافة إلى غصب أنواع أخرى من الحيوانات كالخيل والنحل والماشية(المازوني: ورقة 209ظ، 225ظ، 226ظ، 2228ظ).

ج- غصب الجهد:

قد يحدث أن يغصب الفلاح في جهده وهو أن يجبر على العمل في أرض الغير من أصحاب القوة والجاه على وجه الإكراه والقوة فيحرث وينقي ويدرس وينقل المحصول إلى أماكن التخزين دون أن يتلقى أجرة عن ذلك (انظر التعليق رقم 16).

د- غصب المياه:

والمقصود منه هو غصب نصيب الفلاح البسيط من السقي، أو عدم السماح له بالسقي فيتسبب في عطش المحصول وفساده، أو قلة مردوديته ورداءته. أو أن يقوم غاصب بحفر حفرة في أرض اغتصبها لسقي محصوله(أبو عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي: ورقة 51).

رابعا: المواقف المترتبة عن ظاهرة الغصب.

انجر عن ظاهرة الغصب بالمغرب الأوسط مجموعة من المواقف والردود تحكمت فيها الظرفية التي كانت تمر بها البلاد في تلك الآونة، عبر فيها المجتمع عن رفضه لهذه الأعمال واستيائه منها.

1- موقف السلطة والفقهاء:

لم تتخذ سلطات المغرب الأوسط موقفا محددا اتجاه الأعراب بل إن موقفها حددته الظروف التي تمر بها البلاد والمصالح الشخصية بالدرجة الأولى. موقف تميز بالتخاذل والتواطئ مع الغصاب حماية لمصالحها واستمرار دولتها، بدليل تعيينها على رأس قبائل المغرب الأوسط ومنحها مسؤولية جباية الضرائب حسب ما بينته نازلة أبو

العباس المريض جاء فيها:﴿... بل إنما يداريهم بالعطية والأنعام ببعض بلاد رعيته ونصب عمالهم فيها وقطع نظر عمال السلطنة عن النظر في جبايتها وفصل أحكامها﴾(المازوني، ورقة 56ظ). وآخر حاولت السلطة المركزية من خلاله الحد من سلطة القبائل العربية، سواء باستغلال سلطتها العسكرية ضدها، وهو ما تمخض عنه في بعض الأحيان تمردات ضد السلطة الحاكمة، من ذلك تمرد عرب بني عامر وسويد على السلطان أبو ثابت محمد المتوكل على الله(866-873هـ/ 1462- 1468م) الذي أساء معاملتهم واستبد بهم فشكوه لسلطان تونس سنة 870هـ/ 1465-1466م(الزركشي، دت: 157)، أو باستعمال جهازها القضائي الذي أصبح عرضة لعبث وتلاعب أمراء العرب الذين باتوا يعينون القضاة والأئمة ويعزلونهم على حسب ما يخدم مصالحهم(المازوني، ورقة 257ظ).

فكان موقف الفقهاء والقضاة الممثلين للجهاز القضائي، استنكار هذا العمل واعتباره عمل غير شرعي فحرموا على الناس التعامل معهم لأن معظم أموالهم هي سلع حصلوا عليها عن طريق الغصب وغيره(أنظر التعليق رقم 17)، وقضوا بإرجاعها إلى أصحابها، استنادا في ذلك إلى الحديث الشريف، قال صلى الله عليه وسلم:﴿ من زرع أرض قوم بغير إذن منهم فالزرع لرب الأرض وعليه نفقته﴾(أبو محمد بن خنتاش المسيلي: ورقة 78ظ)، وهناك من أباح قتالهم، وهو موقف الإمام مالك(المازوني: ورقة 56(و،ظ)) الذي رأى في أعراب

قطعوا الطريق أن جهادهم أحب إليه من جهاد الروم، فسار على نهجه فقهاء المذهب المالكي فيما بعد. والإمام ابن عبد السلام لما سئل عن البهيمة إذا تناسلت عند غاصبها فأفتى بردها ورد نسلها(أبو محمد بن ختتاش المسيلي: ورقة 78ظ)، وفي نفس السياق جاءت نوازل المازوني لتوضح موقف التشدد الذي تبعه فقهاء المغرب الأوسط فيما بين القرنين الثامن والتاسع هجريين وخاصة مع قبائل الأعرابية من بني سليم وبني هلال وبني عامر(محمد الأمين بلغيث، 2006، ص 121).

2- موقف السكان:

لعب أسلوب التفكير لسكان المغرب الأوسط والظرفية التي عاش فيها دورا كبيرا في تحديد موقف السكان المتضررين من أعمال الغصب، ومن ثمة فإن مواقفهم تراوحت بين الرضوخ والرفض. فبعض منهم رضخ كونه مضطر لذلك، ولا قدرة لهم للدفاع عن أنفسهم من جبروت الأعراب(أنظر التعليق رقم 18)، وفي ذلك يورد المازوني نازلة وقعت بمدينة مازونة يقول فيها:﴿ سألت شيخنا وسيدي أبو الفضل العقباني وقلت له يا سيدي تعلم أن بلادنا كثيرة الباطل والغصوبات يطلب فيها الإنسان فيما لم يجب عليه ويحبس فيلجئه الحال إلى معاملة في سلعة يدفعها إلى ظالم يفك بها نفسه...﴾(المازوني: ورقة 156ظ)، وفي نفس الوقت فإنه لا يجد ملاذا آمنا يلجأ إليه فالمدن هي الأخرى لم تنجوا من بطش الأعراب(الحسن الوزان، 1983: 2/ 12، 34، 36).

بينما استنكرت بعض القبائل هذه الأعمال وقررت الدفاع عن مواطنها وأراضيها، وتحيلنا النصوص النوازلية والتاريخية إلى جملة من النماذج الدالة على حالة الرفض التي تبنتها الرعية، من ذلك نازلة وردت على الفقيه أبو الفضل العقباني مقاومة أهل القرى للأعراب الذين هاجموهم فدخلون معهم في قتال(المازوني: ورقة 60و)، وتزداد المقاومة أكثر في الجبال التي تتميز بالحصانة والمنعة، فبجاية امتنعت عن سطوة الأعراب لصعوبة مسالكها(ابن خلدون، 2000: 6/ 47)، كما عاشت قبائل جبل الأوراس بمعزل عن سلطة الأمراء والأعراب(الحسن الوزان، 1983: 2/ 8 103، 103)، ومنها من لجأ إلى الاستنجاد بالقبائل المجاورة لها والتكتل معها للتخفيف من ضغط وسيطرة القوة الغاصبة، حيث تحدثت النصوص النوازلية عن سكان إحدى قرى بجاية عندما هاجمهم محاربون وأخذوا أموالهم فأغاثهم قوم آخرين(المازوني: ورقة 60ظ)، وتحالفت قبائل جبل مطغرة فيما بينها ضد ملك تلمسان وعماله من الأعراب(الحسن الوزان، 1983: 2/ 44/ مارمول كاربخال، 1984: 1/ 351)، أما أهل برشك فكانوا حلفاء لقبائل بني زانية إحدى فروع زناتة وبذلك تمكنت المدينة أن تدفع على نفسها الخطر مدة تزيد عن مئة سنة(الحسن الوزان، 1983: 2/ 33)، ومنه يتضح أن قبائل المغرب الأوسط حاولت التأقلم مع الظروف ومقاومتها لتدفع عن نفسها الخطر.

خامسا: الآثار المترتبة عن عمليات الغضب.

لقد كان لأعمال الغضب أثر بالغ على حياة الرعية ويظهر ذلك جليا في الفضاء الريفي، وهو ما أفرز مجموعة من الآثار نذكر بعضا منها:

1- الهجرة:

إن استمرار عمليات الغضب وعدم وجود حلول ناجعة لهذه المشكلة نجم عنه ظاهرة الهجرة نحو المدن والقرى الكبيرة أو المجاورة(أنظر التعليق رقم 19)، ولجأ بعض منهم إلى الحصون والقلاع هروبا من بطش المغتصبين والطغاة، الذين لا تكف عاديتهم، وليس لهم حد ينتهون إليه على حد تعبير النازلة(أنظر التعليق رقم 20)، ومن المظاهر أيضا أن كانت القبائل والرعايا تهجر أو تطرد من أراضيها وتمنح لأقوام أخرى يستغلونها تعديا، في حين يفقد رب الأرض الحق في استغلالها إلا بإذن من الحاكم نفسه(المازوني: ورقة229و). أما الأرياف التي تبقى مستقرة في مواطنها فهي مضطرة إلى التعامل مع القبائل الغاصِبة لضمان عدم التعدي عليها أو على أموالها، مقابل دفع الإتاوة(أنظر التعليق رقم 21).

2- ضعف الإنتاج الفلاحي:

ينجم عن عمليات الغصب إقلاع الفلاحين عن ممارسة النشاط الزراعي لخوفهم من التعرض لعمليات الغصب، فقد بينت النصوص النوازلية أنه ببجاية لم يكن للفلاح حق في اتخاذ أي قرار ببيع أو شراء الأرض دون الحصول على إذن من المسؤول عن تلك المنطقة الذي عادة

ما يكون من الأعراب(المازوني: ورقة 151و)، وهذا ما استدعى حلولا تتوافق والظرفية التي تمر بها البلاد فلجأوا إلى تربية الحيوانات لسهولة التنقل والفرار، كما عمد البعض منهم إلى بيع أرضه(أبو محمد بن خنتاش: ورقة 46ظ) والهجرة نحو المدن والقرى الكبيرة، أو التوجه نحو ممارسة بعض الأعمال البسيطة كالاحتطاب(الحسن الوزان، 1983: 1/ 352) أو مزاولة بعض الحرف البسيطة كحرفتي الفخار والنسيج، يقول الحسن الوزان عن سكان جبال قسنطينة:﴿ ويزاولون مختلف الحرف وينسجون على الخصوص كمية كبيرة من القماش...﴾(الحسن الوزان، 1983: 2/ 103)، وهو ما يفسر عزوف الفلاحين عن استغلال الأرض، وإعطاء الأولوية لتربية الحيوانات.

إن عمليات الغصب المتكررة على الأرياف صاحبتها أيضا آفات أخرى كالمجاعات الناتجة عن بقاء الأراضي بورا لسنين طويلة، ويرجع ابن خلدون أسباب المجاعات إلى عزوف الناس عن الزراعة بسبب العدوان في الأموال والجبايات والفتن أو للمطر الذي يتحكم في قوة وضعف، أو كثرة وقلة الزرع والثمار والضرع(ابن خلدون، 2005: 242)، وقد أثبتت النصوص التاريخية أن الأراضي الزراعية المتواجدة بأحواز مدينة عنابة لم تكن مستغلة إلا البعض منها التي كانت تحرث معتمدة على قوتها العسكرية(الحسن الوزان، 1983: 2/ 104).

خاتمة:

إن أعمال الغصب التي كانت شائعة بالمغرب الأوسط زادت من تأزم الوضع على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فهي تجسد ما عناه المجتمع في تلك الآونة من ظلم وجور وانتهاك للحقوق والممتلكات خاصة سكان الأرياف في فترة تميزت بالتكالب والصراع على السلطة والجري وراء المصالح دون الاهتمام بشؤون الرعية، وبهذا تكون القبائل العربية هي المستفيد الوحيد من هذه الظرفية. لقد عملت هذه القبائل على تعزيز الصراعات بين الأمراء وحتى بين الدول الحاكمة للمغرب الإسلامي، لتضمن بقاءها بالمنطقة والحفاظ على مصالحها.

ولما كان اقتصاد الريف يقوم على النشاط الفلاحي فإن القبائل العربية تمكنت من بسط يدها على السهول الخصبة واكتساح أراضي شاسعة من المغرب الأوسط، على الرغم من مواقف المقاومة المتعددة الصادرة من قبل السكان أو قرارات الرفض وتهجين التي نظّر له الفقهاء والقضاة.

*** المراجع**

1- التعليقات

1- أبو زكريا يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني، تعلم على يد أبيه أبي عمران موسى بمازونة، ثم انتقل إلى تلمسان ليتم تعليمه على يد كبار أئمة الفقه والقضاء آنذاك، أمثال القاضي أبو عبد الله محمد التلمساني، محمد بن محمد بن مرزوق، محمد بن زاغو، أبو الفضل قاسم العقباني، وأبو العباس أحمد العبادي، تقلد منصب القضاء في سن مبكرة في كل من تنس ومازونة، ثم انتقل

للقضاء في عاصمة الدولة الزيانية في عهد السلطان الزياني(أبو العباس أحمد المعتصم بن أبي حمو موسى الثاني(834-866هـ/ 1431- 1462)، توفي هذا الفقيه سنة 883هـ/ 1474م بتلمسان. (أحمد بابا التمبكتي، 1989: 2/ 673 / الحفناوي، أبو القاسم محمد، 1982: 1/ 116 / أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الله التنسي، 2001: ص 247، 248)

2- ويعرّف **الغصب** على أنه:

- لغة: وهو مرادف لـ: جار، بغى، طغى، استبد، وهو الاستيلاء على الشيء قهرا، أو هو أخذ الشيء من الغير بالتغلب...وغصبه ويغصبه: أخذه ظلما. (مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي ،2005: ص 535).

- **اصطلاحا**: أخذ الأعيان الممتلكات بدون رضا أربابها على وجه القهر والغلبة من ذي السلطان والقوة، أو هو أخذ مال متقوم- أي مباح الانتفاع به شرعا- أي حرام أخذه بلا سبب شرعي، ويرى ابن الحاجب: أنه أخذ المال قهرا من غير حرابة... وحسب المازوني فالغصب: هو تعدي على الغير سواء على أرضه أو أدوات عمله وأملاكه عقارية كانت أم حيوانية.(أبو القاسم بن أحمد البرزلي التونسي، 2002: 5/ 111، المازوني: ورقة 228و/ رنهارت دوزي، 1980:7/ 123، 410/ محمد عمارة، 1993: ص409).

3- هما حيين من زغبة، فقبيلة **بنو عامر**: تضم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر، وبنو حميد بن عامر، وبنو شافع بن عامر، كانت مواطنهم آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبلة تلمسان فيما يلي المعقل، أما **بنو سويد بن عامر**: فلها بطون عدة وهي فلمة وشبانة ومجاهر، وجوثة، وهبرة. وقد تمكن هذا القبيل من الاستيلاء أيام حكم السلطان أبي حمو موسى (760-791هـ/ 1358-1388م) على بلاد توجين كلها ما عدا جبل وانشريس لوعورته. (عبد الرحمن ابن خلدون، 2000: 6/ 61،64،65،68)

4- **البربر**: على حسب ما ذكر الطبري أنهم من كنعان ومن العماليق، فلما قتل داوود جالوت تفرقوا في البلاد وغزا إفريقش المغرب فنقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية، وسموا بربرا لأن إفريقش الملك الحميري قال لهم ما أكثر بربرتكم، وقال آخرون أنه لما تفرق أولاد نوح أقبل البرابر نحو المغرب الأقصى فقطنوه وتناسلوا، واتصلوا مع القبط من أرض مصر إلى المغرب الأقصى وجاوروا السودان مما يلي الصحراء والإفرنجة الروم مما يلي السواحل. (صالح بن عبد الحكيم الإيلاني،، 2013: ص 246).

5- **القبائل الهلالية**: هي أخلاط من القبائل العربية العدنانية، ومن بينهم سليم، وهلال الذي غلب اسمه على مجموع هذه القبائل والبطون، ولما انقطع الأمير الزيري المعز بن باديس سنة 443هـ/ 1051م عن الدعوة للخلافة الفاطمية في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله(427- 487هـ/ 1035-1094م)، قام وزيره إلى هاته القبائل وشجعها على الرحيل باتجاه القيروان، وزودهم بالمال والسلاح، فاستولوا على القيروان سنة 449هـ/ 1057م، وتمكنوا من السيطرة على قبيلة صنهاجة، ثم توسعوا على حساب مضارب قبيلة زناتة وأخضعوها.(مصطفى أبو الضيف أحمد عمر، 1982: ص 60، 61).

6- تتكون هذه العناصر من: الوصفان الذين هم من أصل سوداني، والمسيحيون من القطالونيون والأرغونيون، وبعض الأعلاج وهم من جنسيات مختلفة إيطالية، ألمانية. (خالد بلعربي، 2014: ص 19، 20).

7- **السدويكش**: هم قبائل بربرية يعودون في نسبهم إلى قبائل الحمين، استقروا في السهول الواقعة مابين قسنطينة وبجاية، ولهم بطون كثيرة منها: بنو سيلين وطوسون، وبني فتنة، وبني زغلان...وهم من القبائل الغارمة. (ابن خلدون، 2000: 6/ 197)

8- من أهم القبائل العربية المشكلة للجيش الزياني قبائل بنو عامر، وسويد، وبنو يزيد، وبنو مالك، ودوي منصور، والمعقل، وحصين، والثعالبة، وذوي عبد الله. (خالد بلعربي، 2014: ص 15- 20).

9- وهم حسب الكلبي: ينتسبون إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، ومن بطونهم عمر ومرداس، بني رياح وسعيد بن رياح وخضر بن عامر. (ابن خلدون، 2000: 6/ 43).

10- **أبو العباس أحمد المعروف بالمريض**: أحد تلاميذ ابن عرفة من أهل مازونة. (المازوني: ورقة 56ظ/ الحفناوي،1982: 1/ 156)

11- **ابن عرفة محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي**: ولد سنة 716هـ، أخذ العلم عن ابن عبد السلام، وابن اندراسو الآبلي، وابن الحباب، وابن سلامة، وابن قداح والسطي وغيرهم، تولى الإمامة والإفتاء بالجامع الأعظم. من تلاميذه، أبو القاسم البرزلي، وأبو العباس البسيلي، والحافظ بن حجر وغيرهم، توفي سنة 803هـ. (ابن مريم، 1986: ص 190-197/ الحفناوي، 1982: 1/ 43).

12- **محمد بن أحمد بن قاسم العقباني**: توفي 871هـ أخذ العلم عن جده وغيره، كان عارفا بالنوازل، من آثاره تحفة الناظر وغنية الذاكر في الحسبة.(ابن مريم، 1986: ص 224)13

13- ورد في نازلة سئل عنها الفقيه علي بن عثمان البجائي ورد فيها:﴿...وحال العرب في كثرة غاراتهم وفسادهم معلوم...﴾(المازوني: ورقة 168و).

14- **أبو الفضل العقباني قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني**: أخذ العلم عن والده أبي عثمان، اشتغل بالتدريس والفتوى، تتلمذ على يده ثلة من العلماء أمثال الإمام محمد بن العباس، أبو البركات النايلي، القاضي أبو سالم العقباني، ومحمد بن محمد بن مرزوق، وأبو زكريا يحي المازوني صاحب النوازل، وأبو العباس أحمد الونشريسي، توفي بتلمسان سنة 854هـ (ابن مريم، 1986: ص146، 147/ الحفناوي،1982: 1/ 90، 91)

15- **أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي**: تتلمذ على يده علي بن عثمان البجائي، وأبو القاسم محمد المشدالي، تولى منصب الإفتاء والتدريس، له الجامعة في الأحكام

الفقهية على مذهب الإمام مالك (الوغليسية)، توفي سنة 786هـ ببجاية،(الحفناوي، 1982: 1/ 73)

16- سئل ابن مرزوق :﴿ عن رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا لينتفع بجبايتها فيعمد لمن هم تحت شياخته في زمن الحرث فيأخذ منه زرعا اغتصابا ويأمرهم أن يحرثوه في أرض اغتصبها لآخر ببقرهم ويكلف العمل فيه على الخماسين أو على أرباب البقر ثم إذا حان حصاده كلفهم أيضا...﴾ (المازوني: ورقة 228و).

17- سئل أبو الحسن الصغير: ﴿ عن من ألجأته الضرورة لشراء الإبل من العرب المعروفون بالغصب هل يجوز شراؤها منهم أم لا...فأجاب: الحمد لله إن كان الغصب كثيرا في الإبل حتى يكون هذا هو الغالب عند أربابها لم يجز أن يشتري من عوامهم، إلا بعد السؤال ...﴾، وفي نازلة أخرى سئل عنها الفقيه علي بن عثمان جاء فيها:﴿ عن من عليه ديون ولا عنده ما يخلص به دينه...لكن عنده الشعير وأكثر ما يشتريه العرب وحال العرب في كثرة غاراتهم وفسادهم معلوم، وأرباب الديون ضغطوه...فأجاب: الحمد لله لا يبيع ممن ذكر حتى يأخذه منه القاضي ويتولى بيعه والله تعالى أعلم﴾، (المازوني: ورقة 166و، 168ظ).

18- إن المتمعن في المسائل الواردة في نوازل المازوني يجد أن هذه الأعمال لازمتها صفة الجبروت، وقد جاءت في صياغات عدة دالة على ذلك منها: (رجل من الجبابرة العرب، قوم مرابطون كانوا جبابرة قبل رباطهم). (المازوني: ورقة 222و، 239و).

19- ذكر المازوني في نازلة سئل عنها الإمام أبي القاسم البرزلي ونصها:﴿ عن أخوين ورثا دارا من أبيهما فانتزعها منهم غاصب وأخرجهما منها فانتقلا من بلدهما لبلد آخر بينه وبين دارهما ستة أميال واستوطناه...والغاصب... لا يخفى حاله لكونه من أمراء العرب المالكين للبلد﴾ (المازوني: ورقة 157و).

20- سئل قاضي الجماعة سيدي إبراهيم اليزناسي:﴿ عن رجل من جبابرة العرب أراد التوبة إلى الله وبيده أموال كثيرة وأكثرها من غصب وظلم... فتحصن بعض

أهل تلك البلاد بموضع ومنعوا به أنفسهم وأولادهم...فسمع بهم هذا الرجل ...فأنزلهم من الحصن على الأمن فلما فارقوا حصنهم طال عليهم وغدرهم وأخذ بمن معه من أهل الظلم والفساد حتى لم يبقوا عليهم من أموالهم شيئا﴾(المازوني: ورقة 222و).

21- كانت قبيلة بنو يزيد تدفع 1000 كيس من القمح إلى قبائل بني عامر مقابل التزام هذه الأخيرة بالدفاع عنها من كل خطر يهددها. (عبد المالك بكاي،(2013-2014): ص 156)

***المراجع:**

- ابن خلدون، عبد الرحمن،(2005): المقدمة، مصر: دار ابن الهيثم.
- (2000): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج6، ج7، مراجعة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أحمد عمر، مصطفى أبو الضيف ،(1982): **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- أبو عبد الله محمد بن محمد أبو أحمد الشريف المديوني التلمساني(ابن مريم)، (1986): **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الإيلاني، صالح بن عبد الحكيم،(2013): **مفاخر البربر**، طبعة خاصة، دراسة، تحقيق: عبد القادر بوباية، الجزائر: مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث.
- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي،(2002): **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، ج5، تقديم، تحقيق. محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- بكاي، عبد المالك،(2013- 2014)، **الحياة الريفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 7-9هـ/ 13-15م**، رسالة دكتوراه علوم تخصص تاريخ إسلامي، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر

- بلعربي، خالد ،(2014): **ورقات زيانية- دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني**، الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.

- بلغيث، محمد الأمين ،(2006): **دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، الجزائر: دار التنوير للنشر والتوزيع.

- التنبكتي، أحمد بابا ،(1989): **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج**، إشراف، تقديم، عبد الحميد الهرامة، ج2، طرابلس، الجمهورية الليبية: منشورات الدعوة الإسلامية.

- التنسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الله،(2001): **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، حققه، محمود بوعياد، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.

- الحسن الوزان، الحسن بن الوزان الفاسي، (1983): **وصف إفريقيا**، ج1، ج2، ط2، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- الحفناوي، أبو القاسم محمد، (1982): تعريف **الخلف برجال السلف**، ج1، بيروت: مؤسسة الرسالة؛ تونس: المكتبة العتيقة.

- دوزي، رنهارت، (1980): **تكملة المعاجم العربية**، ج7، نقله إلى العربية وعلق عليه. محمد سليم النعيمي، الجمهورية العراقية: دار الرشيد للنشر.

- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، دت: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، تونس: المكتبة العتيقة.

- عزاوي، أحمد، (2007): **الغرب الإسلامي خلال القرنين 7- 8 هـ دراسة وتحليل لنتائجه(الضعف المريني والانتعاش الحفصي والنصري المؤقت)**، ج4، المغرب: مطبعة الرباط.

- عمارة، محمد، (1993): **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، بيروت؛ القاهرة: دار الشروق.

- الفيروز أبادي، مجد الدين بن يعقوب،(2005): **القاموس المحيط**، ط8، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف. محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

- فيلالي، عبد العزيز ،(2002): **تلمسان في العهد الزياني- دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية**، ج1، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.

- (د ت). «**الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان(تأثير الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية على أحوال السكان)**». ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الدولي التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، يومي 23-24 أفريل2001، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

- كار بخال، مارمول،(1984): **إفريقيا**، ج1، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط: مطابع المعارف للنشر والتوزيع.

- المازوني، أبو زكريا يحي بن موسى بن عيسى المغيلي: **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، مخطوط بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة: تحت رقم 5/ 216.0.

- المسيلي، أبو محمد بن خنتاش: **نهاية المرام في تيسير مطالعة الأحكام**، مخطوط، صيغة pdf.

- المغيلي، أبو عمران موسى بن عيسى بن يحي: **المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق**، مخطوط بمكتبة المتحف الوطني سيرتا، قسنطينة: تحت رقم 14.

- النميري، ابن الحاج ، (1990): **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة من قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي، (1981): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ج2، أخرجه جماعة من الفقهاء،

إشراف، محمد حجي، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

للإحالة على هذا المقال:

ـ حياة بوصلاح، (2020)، « **حوادث الغضب بالمغرب الأوسط وأثرها على المجتمع الريفي(القرنين 8- 9هـ/ 14- 15م) قراءة في نوازل المازوني** » . **المواقف**، المجلد: 16، العدد: 04، ديسمبر 2020 ، ص. ص 98- 122.